البحث عن المياه الدافئة

ولم يستمر حوار الذكريات الهادئ الماتع لوقت طويل، فقد وصلت أخبار أزعجت الباشا عن تقارب بين الباب العالي وبين روسيا، إذ وقَّع الطرفان معاهدة دفاع مشترك، فتغير حال الباشا وذهبت عنه البشاشة التي عهدها منه لاظ بك، فسأل سؤالًا بدا ساذجًا كالعادة بالنسبة للباشا:

- ما الذي يدفع روسيا لمثل هذا الاتفاق مع الباب العالي يا أفندينا؟

- إنها تبحث عن المياه الدافئة يا لاظ..

ولم يفهم لاظ ما يعنيه الباشا، وكذلك لم يجرؤ على إعادة السؤال مرة أخرى، أو طلب تفسير هذه الإجابة الغامضة، وشعر الباشا بالطبع بحيرة لاظ وبما يفكر فيه فاستطرد قائلًا:

- إن الدولة العثمانية يا لاظ، هي المتنفس الوحيد للروس كي يصلوا من خلالها من البحر الأسود إلى البحر الأبيض، وقد منحتهم هذا المتنفس.

- وما المقابل يا أفندينا؟

- الباب العالي يستعد بالتأكيد يا لاظ لاستعادة سورية، ويخشى من مواجهتنا، فتنازل للروس عدوه التقليدي اللدود طمعًا في دعمها عند حدوث المواجهة.

- وماذا سيكون موقف باقي الدول الكبرى يا أفندينا؟

- لا أدري يا لاظ، لقد أصابتني الحيرة من هذه الدول، وأشعر أنها تعبث بنا جميعًا، وعلى أية حال، لابد أن نستعد للقتال ونمد ابننا إبراهيم باشا بما يحتاجه من قوات ومعدات.

ويرسل إبراهيم باشا لوالده رسالة يوضح فيها معلومات مؤكدة عن وجود حشد كبير لجيش عثماني بقيادة القائد العثماني الشهير محمد حافظ باشا، وهو من أكفأ قادة الباب العالي، وأنه يستعد للزحف على سورية لطرد القوات المصرية، فيعمل الباشا على دعم موقف ابنه بأقصى سرعة بكل ما يستطيع من إمدادات، ثم يصل مندوب من طرف السلطان العثماني محمود الثاني، ليلتقي بمحمد علي باشا لبدء مرحلة جديدة من المفاوضات، وكان المندوب يُدعى صارم أفندي. وكان صارم أفندي يحاول أن يصل إلى شروط صلح يقبلها الطرفين، ليمنع المواجهة المرتقبة، ولكن جميع المفاوضات تفشل، ويتخذ الباشا قرارًا في منتهى الخطورة، وهو إعلان استقلاله عن الدولة العثمانية، ليقطع آخر سبب يربطه بالدولة. ويجمع قناصل الدول ويخبرهم بهذا الإعلان في مايو سنة ١٨٣٨، وهنا تدرك الدول أن الباشا قد قرر أن يصبح بديلًا قويًّا للدولة العثمانية التي أصبحت تُسمى بالرجل المريض، وهو ما لن يسمحوا به أبدًا، فقرروا الوقوف إلى جانب الرجل المريض ضد محمد علي الذي دعموه من قبل بما يكفي لإنهاك الرجل

المريض، ومضاعفة مرضه للقضاء عليه بسهولة، ثم تقسيم تركته عليهم بعد ذلك. وقال أحد القناصل في أثناء لقائهم بالباشا:

- لا يمكن أن نوافق على استقلال سموكم عن الدولة العثمانية، فهو إجراء سيسبب كثيرًا من المشكلات التي لا تُحمد عواقبها في المنطقة!

- ولماذا وافقتم على استقلال اليونان عن الدولة، ولا تريدون الموافقة على استقلالنا؟!

- إن موقف اليونان يختلف تمامًا عن موقف سموكم..

وهنا أدرك الباشا الحقيقة المرة التي كان يحاول تجاهلها، وهي أن الغرب ينظرون إلى باقي الشعوب نظرة تختلف عن نظرتهم للشعوب الأوروبية. ولكنه في قرارة نفسه مُصِر على الاستقلال، ويعتقد أنه أحق بالاستقلال من اليونان، فعلى الأقل قد انتصرت جيوشه على جيوش الباب العالي، ومستعد لأية مواجهة أخرى للحصول على الاستقلال بالقوة.